

(١)

ماذا عن سؤال ؟

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : { إِنَّ الدِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ } ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا مُحَمَّدًا عبده وَرَسُولُهُ ، القائل في حديثه الشريف : (أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا ، وَإِنْ قَلَّ) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .
وبعد :

فإن المتأمل والمتدبر لسنن الله (عز وجل) الكونية في خلقه يرى سرعة انقضاء الأيام والشهور والسنين ، فما الحياة الدنيا إلا أنفاس معدودة ، وآجال مضروبة ، وفي ذلك عبر لمن تفكر وتدبر ، يقول الحق سبحانه : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا } ، ويقول جل شأنه : { فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا } .

ولمَّا كان الإنسان في الدنيا مرهونًا بعمله ؛ حيث يقول الحق سبحانه : { وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى } كان على العاقل أن يحرص على الطاعة وأن يداوم عليها حتى يبلغه الله (عز وجل) حسن الخاتمة ، فيلقى ربه وهو راض عنه ، فالإنسان لا يدري بأي طاعة تفتح له أبواب القبول ، فإن الله (عز وجل) قد أخفى رحمته في طاعته ، ألم يقل نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَوَجَدَ بئْرًا ، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ التَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ

(٢)

الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مَيِّ، فَزَلَّ الْبُئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، وفي رواية: (فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ)؟

كما أن الله (عز وجل) قد أخفى غضبه في معاصيه فلا يدري الإنسان بأي معصية يؤخذ أو يعاقب ، ألم يقل نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا ، فَلَمْ تُطْعِمْهَا ، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)؟ فالأعمال بخواتيمها كما أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا) ؛ لذا كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يسأل الله حسن الخاتمة ، ويعلم أمته ذلك ، فعن أنس (رضي الله عنه) قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : (يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ) ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ : (نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ) .

ولا شك أن أرباب البصيرة يدركون أن ربَّ رمضان هو ربُّ شوال ورب سائر الشهور والأيام والأزمنة والأمكنة ، فإذا كان رمضان قد مضى بما فيه من الخيرات والبركات والنفحات ، فماذا عن شوال ؟

إن أبواب الخير كلها لا زالت مفتحة ، ولا يزال رب العزة سبحانه وتعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسطها بالنهار ليتوب مسيء الليل ، في رمضان وفي شوال وفي ذي القعدة وفي كل وقت وحين حتى تطلع الشمس من مغربها ، فعن أبي موسى (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ

(٣)

وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءَ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءَ اللَّيْلِ،
حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا).

وإذا كانت أبواب الجنة قد فتحت في رمضان فإنها لم تغلق بعد رمضان ، فعن
أبي هريرة (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (تُفْتَحُ أَبْوَابُ
الْجَنَّةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَّا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلٌ كَانَتْ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءٌ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا) ، على أن من ذاق
عرف، ومن عرف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، فمن ذاق حلاوة الصيام والقيام
وقراءة القرآن لا يمكن أن ينقطع بعد رمضان عن هذه العبادات .

ولقد ذكر أهل العلم أن من علامات قبول الطاعة حبها وزيادة الإقبال عليها ،
حيث يقول الحق سبحانه : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا
تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} ، ويقول سبحانه : {اللَّهُ نَزَّلَ
أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ
جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِن هَادٍ} ، فمن عاش مع القرآن الكريم في رمضان لا يمكن أن يهجره بعد
رمضان ، كما أن من ألف القيام وذاق حلاوته لا يمكن أن يهجره بعد رمضان ، ومن
استشعر لذة العطاء والجود والإنفاق في سبيل الله في رمضان ، لن ينقطع عن ذلك
بعد رمضان ، فإذا ما اعتاد الإنسان على الطاعة وأحبها وألفها في رمضان ، فإن عليه
أن يبقى على نهجه طوال العام ، وقد حثنا النبي (صلى الله عليه وسلم) على عدم
الانقطاع عن الصيام بانتهاء رمضان ، بل حثنا على المبادرة بالصيام في شوال ، وهو
ما عبر عنه النبي (صلى الله عليه وسلم) بالاتباع فقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ
صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِنًّا مِنْ شَوَّالٍ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ).

(٤)

إن الصائم الحق هو الذي أورثه صيامه تقوى الله (عز وجل) ، وحينما تحدث الحق سبحانه وتعالى عن وصف المتقين وجزائهم قال : {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} ، فلم يخص سبحانه ذلك بليل رمضان ، وعندما قال سبحانه في وصف مقيمي الليل : {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } لم يقصر ذلك على رمضان دون سواه ؛ إنما جعله فضلاً عاماً في سائر الأيام والشهور .

ومن هنا يجب على المسلم أن يستمر على الأعمال الصالحة ، وأن يستقيم على طاعة الله (عز وجل) ، ودوام مراقبته ، يقول سبحانه : {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} ، ويقول جل شأنه : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِمْ} .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ؟ قال: (قل: آمَنتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ) ، فالاستقامة على الطاعة والاستمرار عليها من صفات عباد الله المؤمنين ، حيث يقول الحق سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ، ويقول سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} .

(٥)

وقال الحسن البصري : "إن من جزاء الحسنة الحسنة بعدها ، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها ، فإذا قبل الله العبد فإنه يوفقه إلى الطاعة ، ويصرفه عن المعصية" ، فمن عمل حسنة ثم أتبعها بأخرى كان ذلك علامة على قبول الحسنة الأولى ، ومن عمل حسنة ثم أتبعها بسيئة ، كان ذلك علامة على رد الحسنة وعدم قبولها ، فالطاعة المتقبلة تتبعها مثلها ، وهذا من حسنها وبركتها ، والسيئة تجر إلى مثلها.

على أننا نؤكد أن المداومة والمواظبة على الطاعات والعبادات هو امتثال لقول الله تعالى: {وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} ، وامتثال لقوله جل شأنه: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ* وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ} أي: إذا انتهيت من عبادة وطاعة فتلبس بعبادة وأخرى قاصدا بها وجه الله (عز وجل) ، وهذا ما كان يفعله النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، فقد سئلت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، كَيْفَ كَانَ عَمَلُ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) ، هَلْ كَانَ يَخْصُ شَيْئًا مِنَ الْأَيَّامِ ؟ قَالَتْ : لَا ، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً ، وفي رواية قالت : كان إذا عمل عملاً أثبتته.

أقول قولي هذا ، وأستغفرُ الله لي ولكم .

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام :

إن المداومة على طاعة الله (عز وجل) ، وحسن مراقبته من أسباب حسن الخاتمة، حيث إن المقدمات الصحيحة تصل بصاحبها إلى النتائج الصحيحة المرجوة ، وقد فهم بعض العلماء ذلك فهماً دقيقاً من قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } فذكروا في تفسير هذه الآية

أن المراد : حافظوا على إسلامكم ، وداوموا على أعمالكم الصالحة ، وتقواكم الله حق تقاته ، لتعيشوا على ذلك، وتموتوا عليه ، وتبعثوا عليه ، فإن الكريم (عز وجل) قد جرت سنته سبحانه في خلقه ، أن من عاش على شيء مات عليه ، وبعث عليه .

وفي الحديث النبوي الشريف يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (لَا يُكَلِّمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِّ ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمَسْكِ) ، ولما رأى (صلى الله عليه وسلم) رجلاً قد وقصته ناقته وهو محرم ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ ، وَكَفِّرُوهُ فِي تَوْبِهِ ، وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ ، وَلَا تُقَرِّبُوهُ طَيْبًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُحْرِمًا) .

كما أن من أهم أسباب حسن الخاتمة صدق العبد مع ربه ، لأن صدق النوايا يبلغ المقاصد ، ولا أدل على ذلك من هذا الأعرابي الذي جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فآمن به وأتبعه ثم قال: أَهَاجِرُ مَعَكَ ، فَأَوْصِي بِهِ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بَعْضَ أَصْحَابِهِ ، وعندما قَسَمَ له النبي (صلى الله عليه وسلم) قسما ودفعوه إليه ، قال: مَا هَذَا؟ قَالُوا: قَسَمُ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: (قَسَمْتُهُ لَكَ) ، قَالَ: مَا عَلَيَّ هَذَا اتَّبَعْتُكَ ، وَلَكِنْ اتَّبَعْتُكَ عَلَيَّ أَنْ أُرْمَى هَاهُنَا - وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ - بِسَهْمٍ ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ ، قَالَ: (إِنْ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِصَدَقَتِكَ) ، فَلَبِثُوا قَلِيلًا ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَهُوَ هُوَ) ، فَقَالُوا: نَعَمْ ، قَالَ: (صَدَقَ اللَّهُ فَصَدَّقَهُ) ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي جُبَّتِهِ ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ ، فَكَانَ مِمَّا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ : (اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقَتِلَ شَهِيدًا أَنَا شَهِيدٌ عَلَيْهِ) .

(٧)

فهنيئاً لمن وفقه الله لطاعته ، وأحسن عمله ، وحسن خلقه ، وأعانته على قضاء حوائج الناس ، وتفريج كربهم ، ونشر الخير في مجتمعه ووطنه ، فإن ذلك إن دل فإنما يدل على رضا الله (عز وجل) عنه ، وتوفيقه له ، لأن حسن الخاتمة من إرادة الخيرية بالعبد ، فعن أنس (رضي الله عنه) ، قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ) ، فقيل : كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال : (يُؤَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ) ، قيل : وما عسله قبل موته؟ قال : (يُفْتَحُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ) .

اللهم ارزقنا قبل الموت توبة ، وعند الموت شهادة ، وبعد الموت جنة ونعيماً .